كتاب الشباب

كلاب الليل



قصة

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

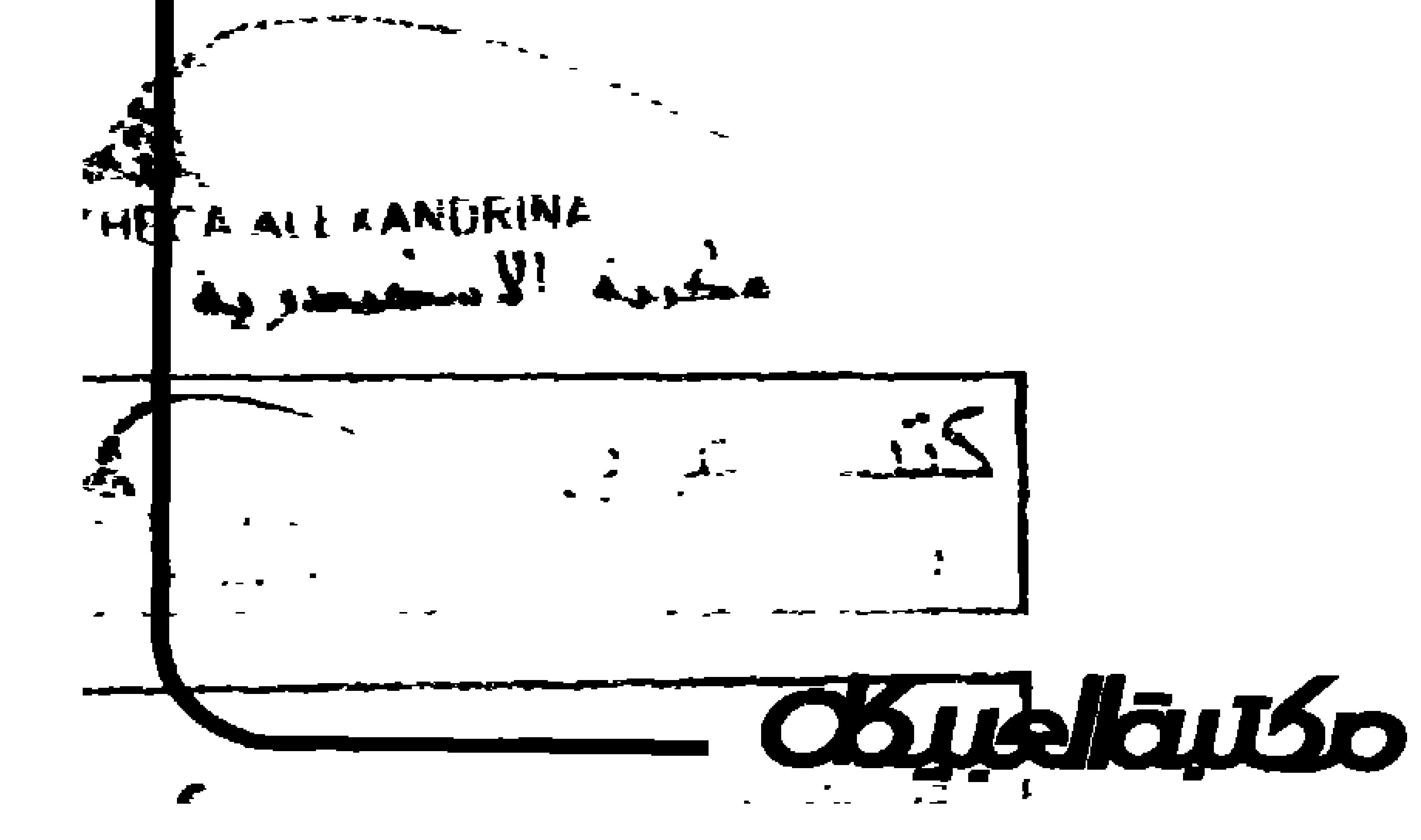
89

B2

كـــلاب الليـــل

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي



مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

كلاب الليل – الرياض

٤٦ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٧-١٠-٤٠-٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية – السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٨٣١

رقم الإيداع: ٢٢/١٨٣١ ردمك: ٧-١٠-٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



وَجَدَ الفَتَى الجنوبُ إفْريقي (مْبيلي بايْغَا) نفسَهُ تائهًا في حَيٍّ البيض. دخلهَ باحثاً عن كَلْبَتِهِ الضَّالَّةِ (جيمايما) ولم يعرفْ طريقَ الخروجِ.

وغابتِ الشمسُ، وجاء مَوْعدُ مَنْع تجَوُّلِ السودِ و«المُلَوَّنين» في مناطق البيضِ، كما يفرض ذلك قانون (الأَبَرْثَايْدْ)* العُنْصُرِيُّ البغيضُ.

وأحَسَّ مبيلي برُعْبٍ شديدٍ! خُصوصاً حين لَقِيَتْهُ عجوزٌ بيضاءُ، وحَدَجَتْهُ بنظراتٍ عُدْوانيةٍ، ونَبَحَتْ في وجهِه: «ماذا تفعلُ هُنا!»

فقال: «أنا تائهٌ يا سيدتي، وأبحَثُ عن طريقِ الخُروجِ. فهل تَدُلِّينَني عليها، من فضلكِ؟»

فصاحت في وجهه: «كذَّاب!»

ورفعت مِظَلَّتَها لتَهْوِيَ بها عليه، فَفَرَّ من وجهِهَا، وركَضَ على غيرِ هُدًى حتى وجدَ نفسَه في شارعٍ واسعٍ يلعبُ فيه

* قانون التمييز بين البيض وغيرهم من مواطني جنوب إفريقيا. وقد أنهاه شعب ذلك البلدِ بعد نضال طويل بقيادة رئيسه الأول "نيْلسون مانديلا" أقدم سجين في العالم.

أطفالٌ بيضٌ. وبمُجرَّد ما رأَوْهُ أخذوا يتصايَحون: «أسْود! أسود!» وهبُّوا لمطارَدَته، فأطلَقَ ساقيْهِ للريح في الاتجاهِ المُعاكِسِ، وقلْبُهُ يدقُّ بعُنْفٍ!

* * *

وفجأةً ظهرَ أمامَه شُرْطيانِ أبيضانِ ببِذْلَتَيْهِما السوداوَين البغيضَتَين، وفي يدِ كلٍّ منهما عَصًا غليظةٌ. وقفا في وجهِهِ وأقفلا أمامَه الطريقَ. وأسرعَ هو للاِحْتِماءِ بهما من جيشِ الأطفالِ. وما كاد يقترِبُ منهُما حتى خرجَ من خلْفِهمَا كَلْبانِ من النوعِ الألماني الضَّخْمِ، فارْتَمى عليهِ الأَوَّلُ وطرحَه أرضًا، وصعدَا فوقَ صدْرِهِ لمنعِهِ من القِيامِ والفِرارِ، ولُعابُهُما يقْطُرُ على صَدْرِهِ.

واقتربَ الشُّرْطيان يتضاحكانِ لمنظرِ الغُلامِ الأسودِ، وقد جَحَظَتْ عيناهُ وبان بياضُهُما ناصعًا، واصْطكَّتْ أسنانهُ بين شفتَيهِ الغليظَتَين منَ الفزع... وأعطيا إشارةً للكَلْبينِ فانْسَحَبا. وهمَّ مبيلي بالنُّهوض فوضعَ أحَدُ الشرطيين حذاءَهُ السَّميك على بَطْنِهِ وأعادَه إلى الأرض، وسأله: «ماذا تفعلُ هُنا

في هذهِ الساعة؟»

فقال مبيلي وهو يرتعشُ: «أنا آسفٌ يا سيدي! دخلتُ في النهـارِ لأبـحثَ عن كلبـتي، وضَلَلْتُ الطريقَ. وبقـيتُ أبحثُ عن مخْرَجٍ حتى نزلَ الظلامُ.»

فـقـال أضْـخمُ الشـرطيين: «أنـت كـذَّاب، كـجـمـيع أبناءِ جنسك! لماذا لا تقولُ الحقيقةَ؟ إذا صدقَ حدْسِي فأنتَ لِصٌّ، وكنتَ تبحثُ عن مكانٍ تسرِقُ منه!»

فصاح مبيلي: «لا يا سيدي!»

فقال الشرطي الآخر: «هل معك سِلاحٌ؟»

فقال مـبـيلي: «كلا، يا سيدي! أنا لـم أحـمِلْ سِلاحاً في حياتي!»

ورفع الأولُ حـذاءه عَن بطنِه، وأمـرَه بالوُقـوف، وطلبَ من رفيقه تفتيشَه. وأدخل هذا يدَه في قُفَّازٍ أبيضَ، وفتَّشَ الفتَى بدِقَّةٍ. وحين لـم يجدْ معه سِلاحًا ولا ما يُثيرُ شُبْهَـةً وضَعا في يدْيه غُلاًّ وقاداه إلى مَخْفَرِ الشُّرْطة.

وهناك أنزلاه قَبْوا واسعًا كريهَ الرائحةِ، به عددٌ من السُّجَناءِ

السود، بعضُهم طريحُ الأرضِ العارية ينزفُ من جُرُوحِه الدَّمُ، والبعضُ مكوَّمُون على أنفُسِهم يَئِنُّون من الألَمِ والجوعِ والعَطَشَ...

وأَدْخلاه هو غُرفةً خاليةً، وكرَّرا عليه نفسَ السؤالِ: «ماذا كنتَ تفعلُ في حَيٍّ البيضِ؟»

وحين أعاد نفسَ الجوابِ نزلا فيه ضربًا ولَطْمًا وصَفْعًا وركلاً... وكلما أصرَّ على جوابِه تضاعَفَ التعذيبُ وزاد وحْشِيةً حتى أُغْمِيَ عليه وفقد حاسَّة الألَمِ، فتركوهُ طريحًا على الأرضِ المُبْتلَّةِ بدمائِه وصعِدوا لكتابةِ تقريرِهم.

* * *

وفي نفسِ الوقتِ الذي كان فيه زَبانِيةُ الأبرثايدْ يُعذِّبون مبيلي البرئَ، كانت أُمُّه تُحِسُّ بآلامِه في نفسِ الأماكنِ بجسمِها، وتسمعُ صُراخَ استغاثَتِه! لم تكن تعرِفُ أين هو، فقد كان يتغيَّبُ أحيانًا ويبيتُ مع بعضِ أصدقائه أو أقاربِه دون أنْ يُخْبِرَها. وحين يعودُ في الصباحِ تُعاتبُه على ما سَبَّبَهُ لها من قَلَقٍ وسَهَرٍ، فيتَّهِمُها بالمبالَغَةِ والتشاؤُم. ولكنَّ قلقَها

هذه الليلةَ كان أشدَّ وأكثرَ واقعيةً من مجرَّدِ الأحلامِ والظنون.

ومع طُلُوعِ الفجْرِ قرَّرَت الخروجَ للبحثِ عنه بدءاً بمنزلِ صديقه (ممتازٍ علي) الباكستانيِّ الأصلِ. كانت تعرِفُ أنَّ أهلَه يستيقظون لصَلاةِ الفجْرِ.

وفتح البابَ الدكتوُر أحمدُ عَليٌّ، والدُ مُمتاز، وهو يتوجَّسُ شرًّا من الشرطةِ العنصريَّةِ المقيتَةِ. فزياراتُها لتفتيشِ بيوتِ السود والملوَّنين كثيرةٌ، يُداهمونها بحثًا عن الفدائيين الذين ينْعَتونَهم بالإرهابيينَ، أو عن مجرَّدِ الهاربين من الهَمَجيةِ والظُّلْم الكبيرِ! وللشرطةِ الحرِّيةُ المطلَقَةُ في الناسِ وأَمْلاكِهم وأعْراضِهِم، ولا قانون يحمِي منهم المستَضْعَفين!

وارتاحت أعصابُ الدكتورِ أحمد عَلي حينَ وَجَدَ أنَّ الطارقَ المُبكِّرَ لم يكنْ إلاَّ "مريمَ بايغا"، أُمَّ مبيلي صديقِ ابنِه. فدعاها إلى الدخولِ، واستمع إليها وطمْأَنَها إلَى أنه سيخرُج للبحث عنه فوراً.

كان الدكتور "أحمدُ علي" مُحاميًا شهيراً من الدَّرَجَةِ الأولَى. دَرَسَ القانونَ بأكْبَر جامعاتِ جنوبِ إفريقيا وبريطانيا.

درسَهُ بدافعِ الظُّلْمِ المسَلَّطِ على رِقابِ الأفارِقةِ أهلِ البلاد الأصليين والملوَّنين مثْله. وكان هؤلاءِ قد هاجَروا من شبْه القارَةِ الهنديَّةِ والكُومُنْوِيلْثْ، أَيَّامَ الاستعمارِ البريطاني، لِبناءِ مسْتَعَمرةِ جنوبِ إفريقيا الغنية بالثَّرواتِ المعدنيَّة.

وكان الدكتورُ أحمدُ مَعْروفًا في البلدِ بمُحَامي الضُّعَفاء. وكانت الشرطةُ العنصريةُ تُبْغِضُهُ وتخشىَ لسانَه في المحاكم، وترهَبُ مقالاته في الصحافة الداخلية والدولية.

وصرفها إلى منزلها، وذهب إلى المسْجِدِ القريبِ لصلاةِ الفَجْرِ، ثم توجَّهَ بسيارتِه إلى حيٍّ البيض. وكان أوَّلَ من دخله بعد رفْعِ مَنْعِ التجوُّل.

* * *

وعلى باب المخْفَرِ الْتَقَى برئيس الشرطة الهولندي المُسِنِّ الذي كان قد خرج لِتَوِّهِ من سيارَتِه. وسألَه هذا:

– ما الذي جاء بك في هذهِ الساعةِ المبكِّرة؟

– أبحثُ عن ولدٍ إفريقي صديقٍ لولَدي لم يَبِتْ في بَيْتِه، وجاءت أُمُّه تسأل عنه هذا الصباحَ.

- هل هو هنا؟

- لا أدرِي.

وكان بالبابِ شرطيانِ رفعا التحيةَ لرئيسهِما، وفَسَحَا له الطريقَ. وتَبِعَه الدكتورُ أحمدُ علي. دخل دون أنَ يَمُرَّ بصراطِ الاسْتِنْطاقِ الذي كان يَتَعرَّضُ له كلَّمَا زارَ المَخْفَرَ وطلب مقابلةَ مفتِّش أو ضابطٍ. وعَدَّ ذلك انتصاراً صغيراً، خصوصاً حين حَمْلَقَ فيه الشرطيانِ من فوقُ إلى تَحْتُ، وكأنما يَتَوَعَّدانه بألاَّ يُفْلِتَ في المرةِ القادمة.

والتفتَ إليه الضابطُ المُسِنُّ وسأله عن اسمِ الولدِ، ودخل مكتَبَهُ وأمرَ بإحضاره.

ولم يستغْربِ المحامي الكبيرُ لحالةِ الفتى المُزْرِية، ولا للدمِ الذي جفَّ على وجهِهِ ومِنْخَرِيهِ وشَفَتَيْهِ وصدرِه، ولا لعينِه المنتفخةِ الزرقاءِ. وأحَسَّ الضابط المُسِنُّ بالحَرَجِ، فطلبَ من شرطيٍّ الحِراسةِ أَخْذَهُ إلى المرحاضِ ليُنظِّفَ نفسَه ثم يُعيده.

ونظر إلى السِّجلِّ، ثم طلبَ الشرطيينِ وسألهُمَا عن سببِ حبْسِ الولدِ، فأجاباه بأنهما وجداهُ داخلَ حيٍّ البيض، أثناءَ

وقتِ منْعِ تجوُّل السودِ فيه، وأنه أعادَ عليهما الكذْبَةَ القديمةَ. قال إنه تَائهٌ، وإنه يبحثُ عن كَلْبَتِهِ الضالَّةِ.

فقال الضابط:

– هل سألتُما عن الكلبةِ في مُسْتَوْدَعِ الكلابِ الضالَّة؟

– لم نُرِدْ إضاعةَ وقتِنا في التحقيقِ في كذْبَةِ عَبْدٍ ضالٍّ يبحَثُ عن كلبةٍ ضالَّة!

فأَوْمَأَ الضابطُ إلى الهاتفِ، وقال للشرطِيٍّ الذي أجابه:

– اطلبْ المستودَعَ واسألْه!

وجاء الجواب بوجودِ كلبةٍ سوداءَ من نوعِ الدُّوبِرْمان، كما قال مبيلي. فطلب من الشُرطيٍّ إحْضارَها، وصرفَ الثاني، وتوجَّهَ بالحديث إلى الدكتورِ أحمدَ عن أحوالِ الجاليةِ الباكستانيةِ التي يُمثِّلها في البرلمان.

وبعد بضْعِ دقائق حضرتِ الكلبةُ. وحين رأتْ مبيلي ارْتَمَتْ عليهِ ووضعتْ قائمتيْها الأماميَّتَيْنِ على كَتِفيْه، وأخذت تَلْعَقُ وجهَهُ وتَئِنُّ بشوقٍ مؤثِّر. فقال الضابط للمحامي:

- خُذِ الولدَ وانصحْهُ بألاَّ يُخالِفَ القانونَ! فقد كان حظُّه حسنًا هذه المرةِ. أوامرُنا للشرطةِ هي أن تُطلِقَ النارَ أولاً ثم تُلْقِي الأسئلةَ! الأحوالُ هذه الأيامِ ليست على ما يُرامُ.

ووضع الدكتورُ أحمدُ يدَه على رأسِ الولدِ وخرجا من المخفَرِ، والكلبةُ جيمايما وراءَهُما.

وفي السيارةِ أجهشَ الفتى باكيا بمرارةٍ، فنظر إليه الدكتورُ وحرَّك رأسَه في صَمْتٍ، وهو يردِّدُ في سرِّه: «أَما آنَ لهذا الليل أن ينجَلِيَ!؟»

وحين كفَّ مبيلي عن البكاءِ ومسح عينيه، قال له الدكتورُ أحمدُ:

- لِيَكُنْ هذا درسًا لك! درسًا يجعلُك تفكرُ، أنت وأبناءَ جيلِك، في رفعِ هذا الظلمِ عن قومِك. عليكم أن تتعلموا! فالبيضُ ليسوا أفضل منا لأنهم أنصَعُ جِلْدًا، بل لأنهم أكثرُ علمًا. والعلمُ قُوَّةٌ!

* * *

وعلى بابِ الدكتورِ أحمدٍ رحَّب ممتازُ بصديقِه مبيلي،

ووضع ذراعَه حول كتفيه، وصحِبَه إلى بيتِه حيث كانت أُمُه تنتظرُه في قلقٍ شديد!

كان والدُ مبيلي عاملاً في منجم الماسِّ والمعروف بـ «الحُفْرَةِ الكُبرى» قُرْبَ مدينةِ كيمْبِرْلي. وكانتِ الأسرةُ تقطنُ في حَيٍّ الأكواخِ المخصَّصِ لعمَّالِ المنجَمِ، وكان لمبيلي أخٌ أكبرُ وأختٌ صُغْرى. وذات يوم قُتِلَ أبوه في حادثِ الانهيارِ الشهيرِ بجُرْفِ المنجَمِ الضخمِ، فأخذ أخوه الأكبرُ مكانَه.

وفي البيتِ الْتَهَم مبيلي، لشدةِ جوعِه، كلَّ ما أحضرَتْه له أمُّه من طعامٍ، وأوَى إلى غرفةِ نومِه، وارتمَى على فراشِه بملابسِه ونام.

وفي نومِه رأى حُلمًا غريبًا مزْعِجًا. أيقظه صراخُهُ واستغاثَتُه ونُباحُ كلبتِه جيمايما التي كانت نائمةً فوق المِصْطَبَةِ، وظنتْه يستغيثُ بها. ووجد أُمَّه إلى جانبِ فراشِه تُهَدِّئُهُ وتُطَمْئِنُه إلى أنَّ ما رآه مُجَرَّدُ كابوسٍ...

وحكى لأُمهِ أنه رآى نفسَه في قَبْوِ مخفرِ الشرطةِ العَفِنِ طريحاً على الأرضِ العاريةِ، بعد أن أُغْمِيَ عليه من التعذيبِ،

وصحَا على حركةِ رجل يزحفُ نحوَهُ هامسًا: «اسمعْ يا ولدي، أنا أعرِفُك. والدُك كان معي بالمنجَمِ، وكان رفيقي في خليَّةِ حزبِ الكونجرسِ الوطنيٍّ الإفريقي المحظورِ، قبل أن تكتَشِفَهُ الشرطةُ العنصريةُ وتقتُلَه برمْيِه في الحُفرةِ الكَبيرةِ، وتدَّعيَ أنه قُتِلَ في حادثٍ. اسمي جون نغيبي. إنهم سيُعْدِمُونني هذا الصباحَ. قل لوالدتِك أن تُخبِرَ الحزبَ بأنِّي لم أتكلَّمْ، رغم التعذيبِ. لم أقلْ لهم شيئًا. لم أذكُرْ اسمَ أحدٍ من المناضلين، وأن والدَكَ مات مقتولاً، وليس في حادثٍ كما يدَّعُون...»

وقال مبيلي لأُمِّه إن الرجلَ سلَّمَه طَلاَّعةَ أحذيةٍ معدنيةً، وقال له:

«أعطِهِم هذه ليتأكَّدوا من أنكَ كنتَ معي هنا في السجنِ.» وودَّعني وزحف عائداً إلى رُكْنِه حتى لا يَضْبِطوه معي. وقد أيقظني الآن صوتُ طلقةٍ نارية. فهذا موعِدُ تنفيذِ حكمِ الإعدامِ فيه!

ظن مبيلي أن ما رآه كان مجرَّدَ كابوسٍ، ولكنه حين خلعَ

ملابسَه ليستحِمَّ سقطت من جَيبه طلاَّعَةُ الحذاءِ التي وضعها جون نغيبي في يدِه في المخفرِ. وأدرك أن ما رآه كان حقيقةً. ولم يُرِدْ أن يزعجَ والدتَه، فانتظر حتى عاد أخوه من المنجمِ، وانفرد بهِ وحكى له ما حدث، وأعطاه الطلاعةَ. ولم يُعَلِّقْ أخوه بشيء، بل اكتفى بنصْحِه بألا يبوحَ بهذا لأحدٍ، فمنذ دخولِه المخفرَ أصبحَ ذا سوابق مشبوهًا ومتبوعًا بالجواسيس!

ولكنَّ الكابوسَ الرهيب استولَى على مُخيِّلَتِه، وكان أكبرَ من أن يستطيعَ حملَه وحدَه، فأَسَرَّ به إلى صديقِه الحميمِ، ممتازٍ عليٍّ. فأخبرَه هذا بدَوْرِه ببعض ما حكى له والدُه، بصفته مُحاميًا، من مظالمَ ومصائبَ تنزِلُ على رؤوسِ الأفارقةِ السودِ و«الملونين» على أيدي المستعمِرين البور الأفركانيين.*

وتساءلَ الفتيَانِ ماذا يمكنُهما أن يفعلاه لمساعدةِ الفدائيين والمناضلين في صفوفِ حزبِ الكونغرس الوطني الإفريقي. وقال ممتاز، وكأنَّهُ يفكرُ بصوتٍ عالٍ: «إن الأقليةَ البيضاءَ العِنصريةَ التي لا تزيدُ على ستةِ ملايينِ نَسْمَةٍ استطاعت

---

* البور الأفريكانيون المستَعمِرون الأوائل لجنوب افريقيا. وأصلُهُم من هولاندا.

التحكُّمَ في الأغلبيةِ الإفريقيةِ التي تزيدُ على ثمانيةَ عَشَرَ مليونًا! ولو استْطاع الأفارقة الحصُولَ على السِّلاح لأَنْهوا هذا الوضعَ الشاذَّ، وقضوا على عهدِ الظلمِ والطُّغيانِ، واسترجعوا أرضَهم وكرامَتَهم من أيدي المغتصبين!»

وتنهَّدَ ممتازُ وأضاف: «ولكنَّ السلاحَ يحتاجُ إلى مالٍ، وإلى مالٍ كثيرٍ! وثَرْواتُ البلادِ الطبيعيةُ والبشريةُ كلُّها في أَيديهم!»

فعلَّق مبيلي: «حتى ولو كان لنا مالٌ، فَمَنْ سيبيعُنا السلاح؟»

فقال ممتاز: «نشتريه منهم. إنهم مُسْتَعِدُّون لبيعِ أُمَّهاتِهم إذا كان الثمنُ مناسباً! ولكنهم اتَّبعوا سياسةَ التجهيلِ والتفقيرِ والإرهابِ ليُبْقُونا عبيداً لهم.»

وكان مبيلي يُلاعبُ جيمايما ويرمي لها كرةً فتركُضُ خلفَها وتعودُ بها، ويأخذُها ممتاز من فمِها ويرميها فتنطلقُ وراءَها... وخطرت ببالِه فكرةٌ فقال مُتَمَنِّيًا: «آه لو استَطَعْنا تدريبَ جيمايما حتى تُصبِحَ قادرة على التقاط الماسِّ!»

ولم يفهمْ مبيلي قصدَه، فشرح له ممتازُ: «لأَخَذْناها إلى المنجَم وأرسلناها للبحثِ عنه والعودةِ به إلينا. تماماً كما تفعلُ بالكُرَة!»

وفتح مبيلي فمه إعجابا بالفكرةِ وعلّقَ: «ولكن جيمايما قادرةٌ على تعلُّمِ أيِّ شيءٍ نُدرِّبها عليه. فهي كلبةٌ ذكيةٌ للغاية، وإذا درَّبناها على التعرُّفِ على الماسِ فستأتينا به! ولكن من أين لنا بقطعةِ ماسٍ نُدرِّبُها عليها؟»

ففكَّر ممتازُ قليلاً، وقال: «أعرِفُ أحداً من الباكستانيين الأغنياءِ، قد يُسَهِّلُ لنا هذهِ المهمَّةَ.»

ولمعت عينا مبيلي حماساً، ونظر حواليه بطريقةٍ تآمُريةٍ، وقال: «إذا حصلنا عليها فسنكونُ أمسكْنا برأسِ خيطٍ يقودُنا إلى عملٍ عظيم!»

* * *

وفي ذلك المساءِ ذهب ممتازُ لزيارةِ ابنةِ خالَتِه صافيناز. وكان أبوها من أثرياءِ جنوبِ أفريقيا الملونين، وله شركاتٌ تُتاجِرُ في الأحجار الكريمةِ، وعلى رأسِها الماسُّ، لها فروعٌ في

عددٍ من عواصمِ العالمِ.

وكانت صافيناز، رغمَ غِنَى أهلِها، مُثقَّفَةً وواعيةً بالوضع الشاذِّ المُزْري والفريدِ من نوعِه في العالمِ، والذي توجَدُ عليه أغلبيةُ شعبِ جنوبِ أفريقيا، والسُّمْعةِ السيئةِ التي صنعها العنصريون البيضُ للبلادِ. وأكثرُ من ذلك، كانت تحُسُّ بالإهانةِ الشديدةِ التي كان يوجِّهُها البيضُ الجهلةُ الهَمَجُ إلى الملونين والأفارقةِ المتعلمين والمحترمين. فَسَهُلَ على ممتازٍ إقناعُها بإعارَتِه قِطْعَةَ ماسٍ خام لتدريبٍ جيمايما عليها.

ولم يخرجْ من بيتِ خالَتِه إلاَّ والماسةُ في جيبِه. فانطلقَ رأساً إلى بيتِ مبيلي، وفاجَأَهُ بالحجر النفيسِ الذي لم يكُنْ رآه من قبلُ في غيْرِ الصُّوَرِ. ولم ينْبَهِرْ مبيلي بالحجَرِ، فقد كان شبيها بقطعةِ شبٍّ أو زُجاجٍ غيرِ مصقولٍ.

* * *

وفي إحدى الغاباتِ القريبةِ بدأ مبيلي عمليةَ تدريبِ جيمايما، فقرَّبَ الحجرَ من أنفِها لتشُمَّه وتراه جيّداً، وألْقَى بهِ مسافةً قصيرةً، وهمَس لها:

«هاتي!» فذهبت إليه جيمايما وأعادته. وأخذه مبيلي من بين فَكَّيْها القويتين، وسأل ممتازاً: «ألا يمكنُ أن تُكَسِّرَه، كما تفعلُ بالعظام؟»

فقال ممتاز: «لا، لن تستطيعَ كسْرَهُ. فالماسُ أصلبُ معدنٍ معروفٍ! فهو يقطَعُ الزجاجَ ويخدِشُ الصُّلْبَ!»

ورمى مبيلي الماسةَ أبعدَ قليلاً ثم كثيراً حتى خافَ ممتاز أن تضيعَ ولكنها كانت تعودُ بها في كلِّ مرةٍ منتصرةً محرِّكةً ذيلَها تودُّداً.

وجرب وضعَها لها داخلَ مجموعةٍ من الحصَى، وإخفاءَها في حُفْرةٍ أو بين النباتاتِ الكثيفةِ، فكانت تعودُ بها في كل مرة!

وفرِحَ الفَتَيَانِ لنجاحِ العمليةِ وعانقا جيمايما، ورجعا إلى المدينةِ يتهامسان بتفاصيلِ الخطةِ وموعدِ تطبيقها. واتفق رأْيهُمَا على أن يُطْلِعَا جيمي بايغا أخَ مبيلي الأكبرَ على خُطَّتِهِما ليعرفا رأيه فيها.

* * *

وفي تلك الليلةِ تعشَّى ممتازٌ في منزلِ صديقِه مبيلي.

وبعد العَشاءِ انتقلا إلى الحديقةِ الخلفيةِ حيثُ كان جيمي يجلسُ على كرسي هزَّازٍ، يُنْصِتُ إلى الموسيقى الإفريقيةِ من آلةِ تسجيلٍ، ويسترخي من إرهاقِ العملِ.

وبدأ بسُؤالِه عن المنجمِ وعن مناطقِه التي توجَدُ فيها الأحجارُ الكريمةُ بغزارةٍ، وعن حِراسَةِ المنجمِ ونُقَطِ الضَّعفِ فيها، إذا وُجِدَت. وأجابَ هو على أسئلتِهما على قدرِ علْمِه.

ثم تنبَّه إلى هذا الاهتمامِ المفاجئِ بالمنجمِ القديمِ، فسألهما مازحاً: «لماذا تُريدان معرفةَ كلِّ هذا؟ هل تريدان سرقةَ المنجَمِ!؟»

فضحك الفَتَيَانِ. وقال ممتازٌ، وهو يستغفِرُ اللهَ في سِرِّهِ من الكُذْبَةِ:

«لا، بل إننا أخذنا درساً في جُغرافيةِ المناجِمِ، ونريدُ المزيدَ من المعلوماتِ العمليةِ لنُفاجِئَ معلِّمنا ونتفوَّقَ في الامتحانِ!»

فاقتنع الرجلُ. وأضافَ مبيلي: «وعلى ذِكْرِ السرقِة، هل سبقَ أن تعرَّضَ المنجمُ للسرقةِ؟»

فحرَّك جيمي رأسه نافيا: «حدثت محاولاتٌ باءت كلُّها بالفشلِ. وبلَعَ بعضُ العمَّالِ أحجاراً لتهريبِها، ولكنهم اكتُشِفوا عن طريقِ التفتيِش بالأشعَّةِ، فعوقبوا شرَّ عقاب وطُرِدوا... لذلك لم يعد أحدٌ يجرؤُ حتى على التفكيرِ في سرقةِ المنجمِ! أما اقْتِحامُه من الخارجِ فمستحيلٌ! لأنه مُحاطٌ بسياجٍ حديدي مكهرَبٍ وبآلاتِ تصويرٍ ترى كل ما يحدُثُ حوله.»

وسأل ممتازُ: «ألا توجدُ نقطةُ ضُعفٍ واحدةٌ يتسرَّبُ منها السارِقْ؟»

فقال جيمي: «إطلاقًا لقد فكَّروا في كلِّ ما يمكنُ أن يخطُرَ على بالِ لصٍّ أو مُغامرٍ يائسٍ، وحصَّنوا منهم المناجمَ! إنهم أعرَفُ الناسِ باللصوصِ، لأنهم أكْبَرُ لصوصِ العالمِ. فقد سرقوا بلَداً بأكمَلِه!».

فقال مبيلي، ويدُه على رأسِ جيمايما: «لنفرِضْ أن اللصَّ حيوانٌ مدرَّبٌ مثلَ جيمايما مثلاً.»

فَمطَّ جيمي شفته السُّفلَى وقال: «لا أظُنُّ. هؤلاء البيضُ

الخنازيرُ فكروا في كلِّ شيء!»

ولاحظ علاماتِ الخيبة واليأسِ على وجْهَيِ الولدين، فحدَّقَ فيهما باستغرابٍ، وقال: «ما خَطْبُكُما؟ لا يمكنُ أن يكونَ كلُّ هذا الاهتمامِ وهذا الشعورُ العميقُ بالخيبةِ والإحْباطِ من أجلِ الإجابةِ عن أسئلةِ الامتحان! فما هي الحقيقة؟ إذا أردتما أن أساعِدَكُما على حلِّ مشكلةٍ فعليكما أن تقولا لي ما هي.»

ونظر مبيلي إلى ممتازٍ نظرةَ استشارةٍ، فحرك الأولُ رأسه موافقًا، فقال مبيلي: «الحقيقةُ هي غيرُ ما قلنا لك. كنا نريدُ أن نتركَها سرًّا حتى نفاجئَك بنتائجها.»

وأضاف ممتازٌ: «نبيُّنَا نحن المسلمينَ يوصينا بالاسْتِعَانَةِ على قضاءِ حوائجنا بالكِتْمان.»

فقال مبيلي لأخيه: «ولكنْ ليس عنك أنت...»

فقال ممتاز: «السرُّ هو أننا نريدُ أن نُدخِلَ جيمايما إلى المنجمِ لتعودَ إلينا ببعضِ أحجارِ الماس.»

وارتسمت على وجه جيمي ابتسامةُ استخفافٍ بالفكرةِ

الصبيانيةِ، فسارع مبيلي إلى القولِ: «جيمايما في غايةِ الذكاءِ. وقد دربّناها على الْتقاطِ الأحجارِ الكريمة في أماكن شبيهةٍ بأرضِ المنجمِ.»

وظهرت على وجهِ الرجلِ نظرة تشكُّكٍ، فقال ممتازُ: «لا نلومُك على ارْتيابِك. فهذا المخطَّطُ جريء. ولكننا درسناه بعنايةٍ كبيرةٍ وسترى بعينك ما نَعْني...»

وطلب من مبيلي أخذَ جمايما إلى داخلِ البيتِ، وأخرج الماسَّةَ من جيبِه. فتناولَها جيمي ونظر إليها تحتَ الضوءِ، فسقطَ فكُّهُ: «من أين لكُما هذه؟ إنها تساوي ثروة!»

فقال ممتاز: «هذا ليس مهمًّا، المهم ما ستراه...»

ورمى الحجرَ على أرضِ الحديقةِ المظلمةِ تحت نظراتِ دهشةِ جيمي واسْتغرابِه، وصاح بمبيلي: «أدخلْها!»

وحين دخلت الكلبةُ أشار ممتازُ إلى أرض الحديقةِ وهمسَ: «هاتي!» فانطلقَ الحيوانُ يبحث ويتشمَّمُ الأرضَ حتى اختفى في الظلامِ، ثم عادَ والحجرُ النفيسُ بين فكَّيْه. وانقلبت نظرةُ الدهشةِ على وجهِ جيمي إلى نظرةٍ إعجابٍ، وتحول اسْتخفافُه

بالغلامين إلى تقديرٍ واحترامٍ، فصاحَ: «هذه فكرةٌ شيطانية! ولكنها رائعةٌ!»

فقال مبيلي متحمِّسًا: «ما رأيك إذن في تطبيقِها لتزويدِ الحركةِ الوطنيةِ بالمالِ والسلاحِ؟»

ففكر جيمي قليلاً، وحرك رأسَه في حيرةٍ، وقال: «لا أستطيعُ إجابَتَكُما الآن، دعاني أنامُ على الفكرةِ هذه الليلة!»

* * *

وفي صباح اليوم الموالي ذهب جيمي مبكِّرًا إلى عملِه، دون أن يقولَ شيئًا لأخيه وصديقِه. وحين عاد في المساءِ كان الفَتَيان في انتظارِه.

وابتسم لهما مُتأكِّدا من أنه يحمِلُ لهما خبَرًا سارًّا. وفعلاً جلس إليهما في شُرفةِ الحديقةِ الصغيرة، بعيداً عن سمْعِ أُمِّه وقبل أن يستحِمَّ، وأَسرَّ إليهما بأنه وجد مدخلاً لجيمايما، هو عبارةٌ عن أنبوبٍ واسعٍ من الإِسْمَنْتِ، يُسْتعمَلُ قادوسًا لِضَخِّ الماءِ الفائضِ إلى خارجِ الحفرةِ. وهو غير كافٍ لدخولِ إنسانٍ، ولكنه كافٍ لدخولِ حيوان في حجمِ جيمايما. وكان به شُبَّاكٌ

من حـديدٍ، ولكنه أُزيلَ حين اخـتنقتِ القناةُ بالحـشـائشِ والأغصان. ولحسْنِ الحظِّ، فهو في مُنخَفَضٍ مستورٍ عن عيونِ آلاتِ التـصـويرِ والكشفِ الإليكتـروني وبعـيـدٌ عن حـركـةِ الحرَّاسِ... »

ونهض ليـذهـبَ للحـمَّـامِ وقـال: « مـا عليكمـا الآن إلاَّ تدريبُ جيـمـايما على دخولِ قادوسٍ في حـجـمِـه، والبـحثِ خلفِه عن الأحجارِ. »

* * *

وفي صبـاح اليـومِ الموالي، بعث ممتـازُ سـائقَ والِده لشـراءِ أنبـوبٍ من نفسِ النوع، ووضـعـه في الحـديقـةِ، وجـاء مـبيلي بجيمايما، وأخذا يدرِّبانِها على دخولِه والخروجِ منه إلى الناحيةِ الأخرى، والْتقاط الماسةِ والعودةِ بها إليهما عَبْرَه.

وفي اليوم الموالي، وكان يومَ أحدٍ، دعا ممتازُ صديقَه مبيلي وأخاه جيـمي للخـروجِ للتـفـسُّحِ في منتزهٍ قـريبٍ من المنجمِ، ويشرفُ عليهِ من فوقُ. وهيأ لهم الطبَّاخُ وجبَةً طيبة. وركِب مبيلي خلفَ ممتازٍ على دراجَتِه الناريةِ القويةِ، وأخذ جيـمي

درَّاجَته الناريةَ القديمة، وتسابق الاثنانِ طوالَ الطريقِ، دون أن يتجاوزا حدودَ السرعةِ القانونية، وجيمايما تعدو خلفَهم.

وفي المنتزهِ ذي الأشجارِ العالية اختلطوا بالمتنزهين، واغتنم جيمي الفرصةَ ليشير إلى مكانِ القادوس.

وأخرج ممتاز كُرةً، وغمز مبيلي وراحا يلعبانِ بها. وتظاهرَ مبيلي بإفلاتِ الكرةِ منه، فتبعها وهي تتدحرجُ صوبَ المنحدرِ الذي ينتهي بحاجزِ المنجمِ الذي يخترِقُه القادوسُ الإسمنتي. وتبعتهم جيمايما. فلما رأت القادوسَ أسرعت ودخلته قبل أن يستطيعا منعَها. وهمَّا بالفرارِ وتركِها هناك. ولكنهما ضبطا أعصابَهما حتى لا يثيرَا انتباهَ الحراسِ وشكوكَهم.

وزحفت هي بداخلِه، وخرجت من الناحيةِ الثانيةِ إلى داخلِ المنجمِ. وهناك أخذت تتشمَّمُ الأرضَ. وابتعد الولدان، وأخرج مبيلي صفارتَه فوق الصوتيةِ ونفخ فيها فعادت جيمايما في الحالِ، وتبعتهما صوبَ المنتزهِ، دون أن تنطلقَ صفارةُ الإنذارِ الرهيبة.

وكان جيمي يراقبُ العمليةَ بمنظارٍ مقرِّبٍ وقلبُه يدقُّ

بقوة، فقال لهما: «إنها علامةٌ مشجِّعةٌ! إنها تعني أنهم اطمأنُّوا إلى سلامةِ تحصيناتِهم واستحالةِ اقْتِحامِها على اللصوصِ، فناموا في العسل!»

وتحمس جيمي، واقترح عليهما أن تكونَ المحاولةُ الأولى هذه الليلة!

ووجم الولدان للمفاجأةِ، فقال جيمي مشجِّعًا: «يجبُ دقُّ الحديدِ ساخناً! وما دامت جيمايما فهِمَتِ الفكرةَ فلابد من تطبيقِها قبل أن تنساها.»

وانتظروا غروبَ الشمس. وتظاهر جيمي بتصليحِ مُحَرِّكِ دراجَتِه النارية. وحين نزل الظلامُ اقترحَ مبيلي أن ينزل هو وجيمايما وحدَهُما إلى الحاجزِ حتى لا يثيروا الانتباهَ.

ونزل المنحدَرَ وجيمايما في أثرِه حتى وصلا الحاجزَ. وعلى فتحةِ القادوسِ أمسكَ برأسِها وهمس في أُذنْها آمراً: «هاتي!» ووجَّهُها نحو القادوسِ فزحفت بداخله، وخرجت إلى أرضِ المنجمِ المحَرَّمةِ. وفي الحال أخذت تتشمَّمُ الأرضَ حتى غابت تمامًا عن عينيه. وقاوم هو قَلَقَهُ عليها، وأخذ ينظرُ إلى ساعتهِ

بين الثانيةِ والأخرى...

ومرت عشرُ دقائق كاملةٍ قبل أن يسمعَ لُهاثَها وهي عائدةٌ. وخرجت من القادوسِ وفي فمِها شيءٌ وضعته في يدِه، فإذا هو حجرٌ في حجْمِ حُمُّصَةٍ كبيرةٍ.

وخفقَ قلبُه وأمسكَ برأسِها فضمَّهُ إليه علامةَ الرضَى. وصعِد المنحدَرَ وهي وراءَه. ورحَّبَ ممتازُ وجيمي بهما وكأنهما غابا سنواتٍ!

ووضع مبيلي الحجرَ في يدِ أخيه، فنظر هذا إليه تحت ضوءِ فنارهِ اليدوي، وابتسم ابتسامةً عريضةً عن صَفٍّ أسنانٍ قوية بيضاء. وعانقَ أخاه، وقال: «لقد نجحنا!»

فقال ممتاز: «لماذا لا نجرِّبُ إرسالَ جميايما من هنا وحدها هذه المَّرةِ؟ إنها فتاةٌ ذكيَّة!»

وأعجب الاثنانِ بالفكرةِ، فهمس مبيلي في أذنها وهو يضع في فمِها قطعةَ قديدٍ: «اذهبي وهاتي!»

فانطلقت تعدو صوبَ المنجمِ حتى اختفت عن عيونهم.

ومرت حواليْ عشرِ دقائق حافلة بالانتظارِ والتوتُّرِ، والثلاثةُ

يحملقون في الظلام... كان كلٌّ واحدٍ منهم يتخيَّلُ ما يمكنُ أن يحدُثَ ويُفسِدَ العمليةَ. توقَّعَ مبيلي أن يسمَعَ صوتَ طلقةٍ ناريةٍ وصرخةِ صديقَتِه العزيزةِ جيمايما. وتوقَّعَ ممتازُ انفجارَ لغْمٍ تحتَها. وتخيَّلَ جيمي عودتَها وخلفَها سِرْبٌ من كلابِ حراسةِ المنجمِ تُطارِدُها، وخلفَها جماعةٌ من الحرسِ العنصري الشرسِ ليعرِفوا من أين جاءتِ الكلبةُ اللِّصَّةُ! لذلك حرِصَ على أن ينتظروا جميعًا فوق درَّجاتِهم الناريةِ في تأهُّبٍ تامٍّ للفرارِ!

ولم يحدث شيء مما تخيَّله المتشائمون الثلاثةُ، بل خرجت جيمايما من القادوس، وجاءت إليهم حاملةً في فمِها قطعةَ ماس أكبرَ من الأُولَى. وحين وضعتها في يدِ مبيلي همسَ هذا: «ماذا سنفعلُ الآن؟ هل نعود؟»

فقال جيمي وقدِ استولت عليه روح المقامرةِ وحُمَّى الماس، ولمعت عيناه في وجهِ الأسودِ: «لا لن نذهبَ الآن! أعتقدُ أن هذه ليلة حظِّنا، وعلينا أن نستغلَّها إلى النهاية!»

وانتقل حماسه إلى الشابين، فأعطى مبيلي قطعةَ قديدٍ

لجيمايما وأرسلَها بهمسته: «هاتي!»

ومع الثالثةِ صباحًا كان قد تجمَّع لهم حوالَي حفنةٍ صغيرة من الأحجارِ الكريمة. وصارت كلما عادت جيمايما بحجَرٍ عانقوها وفرِحوا بها وأطعموها وسقَوْها حتى تَعِبت، وبدأتْ مُّدةُ غيابِها تطولُ، وصارت تعودُ ماشيةً بعد ما كانت تأتي راكِضةً. وحين عانقها مبيلي اشتكت إليه تعبَها بأنينٍ مسموعٍ، فقرَّرَ إنهاءَ العملية والعودةَ إلى البيتِ للنومِ.

ودفع الثلاثةُ الدراجتين الناريتين حتى ابتعدوا بهما عن مَسْمَعِ حُرَّاسِ المنجمِ، ثم أداروا مُحرِّكيْهما. وركب مبيلي وراءَ ممتازٍ، وتقدمهم جيمي وساروا في طريقٍ مهجورة، وجيمايما وراءَهم، إلى أن وصلوا بيت مبيلي وجيمي. ودخل الثلاثةُ غرفةَ جيمي وقد زال عنهم القلقُ والخوفُ.

وتكلم جيمي لأول مرة: «إن ما فعَلَتْهُ جيمايما يُعْتَبَرُ معجزةً! أتعرفانِ كم تُنفِقُ الشركةُ من جَهْدٍ ووقتٍ ومالٍ لجمعِ ما جمَعَتْهُ جيمايما في أقلَّ من عشْرِ ساعاتٍ!؟»

وأخذ يعُدُّ لهم أطنانَ الترابَ التي تحمِلُها الجرَّافاتُ إلى

الشاحنات، وعددَ أطنانِ الماء التي تُستَعْمَلُ لتنظيفِ الأحجارِ من الأَتربةِ. وعلَّقَ في النهايةِ: لا بدَّ أن جيمايما عثرت على منْطقةٍ بكْرٍ لم يبدأْ العمَلُ فيها بعد.»

وتساءَلَ مبيلي: «وماذا بعدُ؟ كيف سنُحَوِّلُ هذه الأحجارَ إلى سلاحٍ؟»

كان الليلُ والخوفُ قد أعادا إليهِ صورةَ السجينِ جون نغيبي الذي رآه في كابوسِه وهو يخبِرُه بقُرْبِ تنفيذِ حُكْمِ الإعدام فيه. وعاد إليه الإحساسُ بالإهانةِ والقَهْرِ اللذيْنِ عاناهما على أيدي الشرطيين العنصريين. وشعرَ برغبَةٍ مُحْرِقَةٍ في الانتقام منهما لنفسِه، ومن النظامِ العنصري المتوحِّشِ لقومِه ووطنِه.

فقال جيمي: «لا، لا تنتظِرْ من حَفنةِ حجارةٍ أن تُغيِّرَ مجرَى التاريخِ، وتُنْهِيَ في ليلةٍ واحدةٍ استعمارَ ثلاثمائةِ سنةٍ! حركاتُ التحريرِ تحتاجُ إلىَ رجالٍ ووقت ومال كثيرٍ وصبرٍ أكثرَ! وعلينا نحنُ أن نجمَعَ أكثَرَ من هذا بكثيرٍ إذا أردنا المشاركةَ في معركةِ التحريرِ. وقد نتعرَّضُ للاعتقالِ

والتعذيبِ، بل وحتى القتل!»

فقال ممتاز: «حقيقةً! فقد سمعْتُ والدي يقولُ مرة: "إِن المناجِمَ عند البورِ مقدَّسَةٌ، وسَرِقَتُها جريمةٌ لا تُغْتَفَر! إِلى جانب أن الماس المسروقَ أو المهرَّبَ بضاعةٌ حاميةٌ، تحرِقُ الأكُفَّ والجيوبَ، وتمنعُ النومَ عن العيون. فالأحجارُ التي تخرجُ من المنجم كلها مرقَّمَةٌ ومسجَّلَةٌ حسَبَ أحجامِها وأوزانِها ومقْدارِ صفائِها. وإذا لم تكن الماسةُ حاصلةً على شهادةِ ميلادٍ واسمٍ مُسَجَّلٍ لدَى السلطاتِ المتخَصِّصةِ فهي كالغريب في بلدٍ غريبٍ بلا أوراقٍ ولا هُوِيَّةٍ! وبالتالي فهي خطرٌ على بائعها ومشترِيها؛ لذلك يكونُ ثمنُها أرخَصَ."»

فقال جيمي: «إِذن علينا أن نُسَلِّمَ هذه الأحجارَ لأحدِ ثقاتِ قادةِ حزبِ الكونجرس الوطني، ونأخذَ رأْيَه في استمرارِ العمليةِ. فالحزبُ له وسائلُه الخاصَّةُ للاستفادةِ منها.»

فقال مبيلي: سمِعتُ مرةً حديثًا يدور بين بعض التجّارِ الآسيويين في أحدِ الدكاكين، دون أن ينتبِهوا لوجودي. قال أحدهم: «إِن عددَ التجّارِ السريين في الماس أكثرُ من العلَنيين

والرسميين، ولهم أسواقٌ في جميع أنحاءِ العالَمِ لتصريفِ مُهَرَّباتِهم بعد صقْلِها وإعدادِها للاستعمالِ. » ثم سأل أخاه: « ما رأيُكَ في استشارةِ الدكتور أحمَدَ والدِ ممتازٍ في هذا؟ فهو مُحامٍ واسعُ التجربةِ، ويمكنه أن يجدَ لنا حلاً أسلَمَ وأسهَلَ. »

ووافق جيمي في الحالِ على الاقتراحِ.

فخرجوا قاصدين بيتَ ممتازٍ. وبمجردِ ما وصلوا إليه انفتحَ البابُ وأطلَّ الدكتورُ أحمدُ ومِنْ خلفِه أُمُّ ممتازٍ، وعلى وجهَيْهِما علاماتُ القلقِ والسهَرِ.

وطلب جيمي الإذن في الدخولِ ليشرحَ للدكتورِ أحمد سببَ تأخُّرِ ممتازٍ. فقد أحسَّ بأنه مسؤولٌ عن ذلك.

وأنصتَ الدكتورُ أحمد بصبْرٍ إلى حكايةِ جيمي، وكلَّ مرة كان يرفعُ رأسَه ويقولُ: « يا إلهي! » وفي نهايةِ الحكايةِ، قال: « إنها مغامرةٌ خطيرةٌ! كان يمكنُ أن تذهبوا فيها جميعًا! »

فقال مبيلي متفلْسِفًا: « كَمْ من روحٍ ذهبت هباءً منثوراً، مثلِ روحِ والدي وروحِ جون نغيبي وروحِ سْتِيفْ بيكو الذي

قـتلوه فـي السـجنِ. وهناك أرواحٌ نبـيـلةٌ أخـرى تتـعـفَّنُ في السجون، مثلَ نلسون مانديلا وغيرِه من المناضلين. . . »

فقال الدكتورُ أحمدُ محذِّرًا: «اسمعوا، مقاومةُ الاحتلالِ عمليةُ احترافٍ لا هِوايةٍ! والخطرُ فيها محسوبٌ كالمكاسِبِ. وهي أنواعٌ. والمقاومةُ التي يجبُ أن تقوموا بها أنتم الفتيانُ هيَ الدراسةُ والتحصيلُ. فحين نرتفعُ إلى مستواهم، ونتساوَى معهم هنا - وأشارَ إلى رأسِهِ - سنكونُ قد كسبنا نِصْفَ المعركةِ. . .

وكان الثلاثةُ مُرْهَقينَ فلم يجادِلْهُ أحدٌ. وأشارَ جيمي إلَى أحجارِ الماس وسأله: «ماذا سنفعلُ بهذه؟»

فـقـال: «اتركـوها لي هنا، وسـآخـذُها أنا وجـيـمـي هذا الصباحَ إلى من سيتولَّى توصيلَها إلى الجهةِ المختصَّةِ. واعْتَبِروا أنَّ ما فعلتم هذه الليلةَ حُلُمًا من الأحلامِ. وإياكم أن تعيدوا الكَرَّةَ! وهناك شيء آخر، لقد تركتم آثارًا تدلُّ عليكم، وهي آثار الكلبة داخلَ المنجم. فإذا فطِنوا لها مبكِّرًا، واستعملوا كلابَهم في تَعَقُّبِها ستقودهم إلى بابِ دارِكم ثم داري.

ولتفادي هذا، على أحدكم أن يعودَ إلى المنتزهِ اليومَ ويصبَّ البترولَ على المكانِ الذي خيَّمتم فيه.»

فسأل ممتاز: «ألاَ نُشْعِلُه حتى يحرقَ الأثرَ؟»

فقال: «بالعكس، البترولُ يشُلُّ حاسَّةَ الشَّمِ عند الكلابِ، ويُضلُّها عن طريقِ طريدتها.»

وتطوَّعَ جيمي بالعودةِ إلى المنتزهِ وصَبَّ البترولِ على جميعِ الآثار.

وغادر الأخَوَانِ. وأَوَى ممتازُ إلى فراشِه. ورغم تعبِه الشديد وتوتُّر أعصابِه، وربَّما بسبَبِهما، لم يستطعْ النومَ. ومرَّ شريطُ أحداثِ اليومِ والليلةِ في خيالهِ بتفْصيل مُدْهِشٍ. وتوقف عند ما قالَه مبيلي لجيمايما وهو يضمُّها ويفرحُ بها بعد مغامرتها الناجحةِ: «لو كان لنا عددٌ منكِ!»

وترددتِ الكلماتُ في ذهنِه وهو بين اليقظةِ والنوم، فرأى سربًا هائلاً من الجِرَاءِ السوداءِ تجتازُ حاجز المنجمِ وكأنه لا يوجَدُ، وتغيبُ لحظاتٍ ثم تعودُ حاملةً في أفواهِها أحجاراً كريمة.

* * *

وكانت العطلةُ قدِ انتهت، وعاد مبيلي وممتازُ إلى المدرسةِ، ونسيا مغامرتَهما، عملا بنصيحةِ الدكتور أحمدٍ.

وحملت جيمايما من كلبٍ من سلالَتِها الدُّوبِرْمَان، وولدت سبعةَ جِراءٍ سودٍ ذكَّرتْ ممتازًا بحُلْمِه القديم وبخُطةٍ عظيمةٍ خطرت ببالهِ، ولكنه تخلَّى عنها حين انكشفت له بعض عيوبها.

* * *

وحدثَ ما لَمْ يكُن في الحُسْبانِ. وقع طرقٌ على بابِ الدكتور أحَمد عليٍّ ذاتَ ليلةٍ، فإذا الزائرُ المفاجئ لم يكن سِوَى إيراسْموس نْدينْغا، المسؤولُ عن تنظيمِ الخلايا الفدائيةِ بالمِنطقة. وكان الدكتورُ أحمد يعرفُه، فرحَّبَ به، ودعاه إلى الدخول. ثم أطلَّ في الشارعِ ليتأكدَ من أنْ لا أحدَ رآه يدْخُل الدارَ. فطمْأنه الرجلُ ذو الوجْهِ الحَجَرِي بأنَّ أحداً لم يَرَه، وبأنه لن يُطيلَ المكُوثَ.

وفي غرفةِ الجلوسِ سأله هل يشربُ شيئًا، فاعتذر قائلاً: «في مناسبة أخرى، فقد جئتكم الآن مرسَلاً من اللجنةِ العليا،

لأشكُرَكم أولاً على الأحجارِ التي أهديتم للمنظمةِ. فقد بلغ خبَرُها الأخَ الرئيسَ الأكبرَ في زنزانَتِه بالسجن.»

وكان يعني بالأخِ الأكبرِ نيلسون مانديلا الذي كان قد قضى بالسجنِ ما يقرُبُ من عشرينَ سنةً، وصار يُعرَفُ بأشهرِ سجينٍ في العالَمِ! وأضاف إيراسْموس ندينغا: «وهو الذي طلب منا سؤالَكم عن الطريقة التي حصلتم بها على الأحجارِ لتعميمها على المناجمِ الأخرى.»

فابتسم الدكتور أحمدُ وقال: «إن المسألَةَ كلَّها مجرَّدُ لعبِ أطفالٍ.»

وحكى له كيف درَّب ابنُه ممتازٌ وصديقُه مبيلي بايغا الكلبةَ جيمايما على الْتقاطِ أحجارِ الماس، وكيف نجحت اللعبةُ فوق ما كانوا يتوقَّعون. واستبعد إمكانَ تكرارِها دون الوقوعِ في فخٍّ. فلابد أن تكونَ شرطةُ المنجم قد عثرت على آثارِ العمليةِ، واحتاطت من تِكرارِها. فسأله ندينغا مستغرباً:

- تعني أنهم حصَلوا على الأحجارِ الثلاثين في مكانٍ واحد ودفعةً واحدةً!؟

– بالضبْطِ! وقد نصحتُهم بعدَمِ العودةِ. فأنتم تعرفون عقوبةَ سرقةِ المناجمِ.

– هل يمكن أن أُلْقِيَ على ولدِكُم بعضَ الأسئلة؟

– بكُلِّ سرورٍ...

ونهض وأحضرَ الولَدَ، وقال له مشيراً إلى الضيفِ الكبير:

– هذا هو البطلُ الذي تسمَعُ عنه، إيراسموس تدينغا...

فانفتحت عينا ممتازٍ للمفاجأةِ الكبيرةِ، وتقدَّم لتحيةِ الرجلِ باحترامٍ وإعجابٍ. وسأله الضيفُ عن تفاصيلِ العملية خصوصًا ما يتعلَّقُ بتدريبِ جيمايما، فقال ممتاز:

– إنها كلبةٌ ذكيةٌ للغاية. ولحُسْنِ الحظ أنها وَلَدَتْ سبعةَ جِراءٍ سود مثلِها من كلبٍ من سُلالتها الدوبرمان.

– إذن في الإمكان تدريبُها جميعًا على العمليةِ.

– لا أضمنُ ذلك. ذكاءُ جيمايما استِثْنائي، وقد لا ينتقلُ إلى جِرائها. وأنتم، كما أفهَمُ، تريدون جِراءً طِبْقَ الأصلِ من جيمايما.

– نعم، نريدها ذكيةً سهْلةَ التدريبِ، ونريدُها بأعدادٍ

كبيرة لإطلاقِها في جميعِ المناجم في نفسِ الليلةِ، حتى نحتفظَ بعُنصُرِ المفاجأةِ.

فقال لدكتور أحمد:

- سيكون عليكم أن تنتظروا طويلاً حتى تَشِبَّ الجِراءُ وتَلِدَ ويلِدَ أبناؤها وحفَدَتُها لجمعِ العددِ الكافي، واختيارِ الأذكياءِ من بينها، وتدرِيبها على العمليةِ.

وظهر القنوطُ والضيقُ على وجه ندينغا، وتملمَلَ في كُرسِيِّه، وهمَّ بالنهوضِ، فاستدركَ ممتازٌ:

- اللَّهمَّ إلا إذا جرَّبنَا طريقةً أخرى.

فظهر الاهتمامُ على وجهِ المناضلِ الإفريقي، فقال ممتاز:

- أرجو ألا تُعلِّقوا أملاً كبيراً على هذهِ الخطَّةِ، فهي لم يسبِقْ لها أن جُرِّبتْ. ولستُ...

فقاطعه ندينغا:

- بلا مُقدِّماتٍ، واترُكْ الحكمَ عليها لنا.

فقال ممتازٌ كلمةً واحدة:

- الاستِنْسَاخُ.

فامتعَضَ الدكتورُ أحمَدُ، ولكنَّ ندينغا استحسَنَ الفكرةَ، وسأله:

-تعني توليدَ نُسَخٍ طبقَ الأصلِ عن طريقِ الاستنساخِ البيولوجي؟

- نعم.

- ومن سيقومُ بهذه العمليةِ المعقَّدةِ؟

- فأجاب ندينغا:

- دعْ تدبيرَ أمرِ ذلك لنا. فلنا علماءُ في جميع الجامعات، يستطيعون القيامَ بالعملية. أنا أعتقد أنها خُطةٌ تستحقُّ التجربةَ.

فتساءَلُ الدكتور أحمدُ متشكِّكًا:

- وهل ستكونُ النسَخُ طِبْقَ الأصلِ حتى في الذكاءِ؟

فقال ندينغا:

- لن تجيبَ على هذا السؤالِ إلا التجربةُ العِلْمية.

ونهض ومدَّ يدَه الكبيرةَ الخشِنة إلى ممتازٍ مُصافحًا ومهنئًا على نجاحِ العمليةِ الأولى، وشاكرًا على الأحجارِ النفيسةِ،

ومنوِّهاً بفكرةِ الاستنساخِ العظيمة، وقال:

– سنرسِلُ إلى دارِ مبيلي من يأخذُ عيِّنةً من ضَرْعِ جيمايما لاستنبَاتِها في أرْحامِ أمهَّاتٍ أخرياتٍ واستنساخها. وإذا نجحتِ العمليةُ فسُنَسمِّيها باسمك، وتفوزُ بجائزةٍ كبيرة!

فوضع الدكتورُ أحمد يدَه على كتفِ ابنهِ وقال:

– جائزتُنا هي أن تَتَحرَّرَ بلادُنا من نِيرِ النظامِ العنْصُري البغيضِ، وتعيشَ جميعُ أجناسِ جنوبِ أفريقيا في أمنٍ وسلامٍ وانسجام ووئامٍ...

وودع الزعيمُ الزائرُ مُضيفَه، وحيَّاه بتحيةِ الحزبِ العتيدِ وانصرَف.

* * *

وفي صباحِ اليومِ الموالي بحث ممتازُ عن صديقِه مبيلي ليُسِرَّ إليه بالخبرِ المثيرِ، ويُحدِّثَه عن زيارةِ البطل الكبيرِ، وعن اقتراحِه عليه عمليةَ استنساخِ جيمايما وتحمُّسه لها. وأخبرَه بأن الرجلَ سيبعثُ إلى بيته من يأخذُ العيِّنَةَ من ضَرْعِ جيمايما.

وكاد مبيلي ألا يُصَدِّقٍ ما سمع لولا أن ممتازاً لم يُعوِّدْهُ

على الكذبَ أو المزاح في مثلِ هذه الأمورِ الجدِّية. واستحلَفَه ممتازُ على الكِتمانِ. ولم يكن في حاجةٍ لذلك، فالجميعُ يعلمُ مَغَبَّةَ البَوْح بمِثلِ هذه الأسرارِ.

وتأكَّد مبيلي من صدقِ كلامِ ممتازٍ حين مَرَّ خبيرٌ بمنزلِه، وأخذ عيِّنةً من ضَرْعِ جيمايما بمساعدةِ مبيلي وأُمِّه.

* * *

ومَرَّ ما يقرُبُ من سنةٍ على هذه الأحداثِ، وانشغلَ عنها مبيلي وممتازُ بالدراسةِ والإعدادِ لامتحانِ الشهادة الثانويةِ.

وذاتَ يومٍ، بعد نهايةِ الامتحان، طرق ممتازٌ بابَ دارِ مبيلي، ودخل مُلوحًا بجريدةٍ في يدهِ:

– هل سمعتَ الخبرَ؟

– أيَّ خبرٍ؟

فقرأَ ممتازُ من الجريدةِ: «كلابُ الليلِ تُهاجِمُ المناجمَ!»

ثم قرأ: «أخبرتِ الإدارةُ العامَّةُ لمناجمِ الماس بأنَّ عدداً هائلاً من كلابِ الدوبرمانْ السوداءِ اللامعةِ هاجمتْ جميعَ مناجمِ الماس في جميعِ أرجاءِ اتِّحادِ جنوبِ إفريقيا، وهزمت الحُراسَ

وكلابَ الحراسةِ، والتقطتْ عدداً كبيراً من الأحجارِ النفيسةِ، وهربت واختفت في الظلامِ، دون أن تسقُطَ من بينها ضحيةٌ واحدةٌ!

«وقد حيَّرتْ هذه العمليةُ الجرئيةُ رجالَ الأمنِ بتنظيمِها المُحْكَمِ. وصرَّح قائدُ الشرطةِ بأنها لابد أن تكونَ من عملِ منظمةٍ قويةٍ مثلَ المافيا الدوليةِ.»

ولم ينسُبْ قائدُ الشرطة العمليةَ الذكيةَ لرجالِ المقاومةِ الأفارقةِ «والملونين» حتى لا يصِفَهُم بالذكاءِ. فنظامُ الأبرثايْدْ العنصري قائمٌ على التمييزِ بين البشرِ على أساسِ ألوانِ جلودِهم، وأطروحتُه قائمةٌ على كونِ الجنسِ الزِّنجي أقلُّ ذكاءً من الجنس الآري الأبيضِ!

وقرأ ممتاز: «وقدَّرَ عدد الأحجارِ الكريمةِ التي سرقتْها الكلابُ بحواليْ نصف مليارِ دولارٍ!»

وكان لهذا المبلغِ أثرٌ حاسمٌ في ترجيحِ ميزانِ حربِ التحريرِ لصالحِ الأغلبيةِ الإفريقيةِ. فقد مكَّنَ حزبَ الكونجرس من شراءِ عددٍ كبيرٍ من الأسلحةِ المُتَفَوِّقَةِ، وإرْشاءِ رجالِ الجماركِ وحرَسِ

الحدودِ ورجالِ الأمنِ والمخابراتِ، لتسهيلِ تحرُّكِ المقاومين ورصْدِ حركةِ العَدُوِّ.

* * *

وتصدَّعَ جدارُ قلعةِ الحُكْمِ العنصريِ البغيضِ، وبان عجزُه عن إيقافِ المدِّ البشري التحرُّرِي والوقوفِ في وجهِ التظاهُراتِ الضخمةِ التي كانت وسائلُ الإعلامِ الدوليةُ تنقلُ صَوَرَها إلى جميعِ أنحاءِ العالَمِ.

واستغلَّ رجالُ حزبِ الكونجرس هذه الفوضَى وانتقالَ أغلبِ حُرَّاسِ المناجم إلى صفوفِ شرطةِ قمْعِ التمرُّدِ، فأرسلت جيشَ الجيمايماتٍ في غارةٍ أخرى على المناجمِ الغنية.

أما أعظمُ ما قام به حفَدَةُ جيمايما فهو اشتباكُهُم في إحدَى التظاهراتِ الوطنيةِ الكُبرَى، بمدينة سُويطو، مع كلابِ الشرطةِ العنصريةِ الشرِسَةِ التي كانوا يُطْلقونها على المتظاهرين العُزَّلِ. خرجت فجأةً من بين صفوفِ المتظاهرين، وقد كشَّرتْ عن أنيابِها وسالَ لُعابها، وخرج من حناجِرها هريرٌ مهَدِّدا! وفوجِئت بها كلابُ الشرطةِ العنصريةُ، فدخلها الرعبُ

وارْتَبَكَتْ، وتكاثرتْ عليها الجيمايمات السوداءُ. فولَّتِ الأدبارَ وأذيالُها بين سيقانِها. وتبِعها سواسها في أولِ هزيمةٍ لهم مع تظاهُرةٍ إفريقية. ولم يستطيعوا إطلاقَ النارِ عليها لكونِها أهدافًا متحرِّكة تصعُبُ إصابتُها.

* * *

وحين أحسَّ العنصريون باقترابِ الهزيمةِ بادروا إلى التفاوُضِ مع سجينِهم القديم، نيلسون مانديلا، لإنقاذِ ما يمكِنُ إنقاذُه.

وانتهت المفاوضاتُ بانتقالِ الحكْمِ إلى الأغلبيةِ الإفريقية وبانتخابِ نلسون مانديلا رئيسًا للدولةِ الحرَّةِ الجديدة.

وأثناءَ الاحتفالاتِ التي أُقيمت بمدينةِ كيمْبَرلي بالمناسبةِ، فوجِئَ أهلُ المدينةِ بحُضورِ الرئيسِ مانديلا بنفسِه. وأثناءَ خطابِه التاريخي في ساحةِ المدينة قال: «الآن فقط نستطيعُ أن نكشفَ عن هُويةِ بعض المناضلين الذين عملُوا في الظلِّ، وكانت مبادراتُهم العبقريةُ حاسمةً في تقصيرِ عُمُرِ النظامِ العُنصري والتعجيلِ بذهابِه. وعلى رأس هؤلاء، أَوَدُّ أن أدعو

إلَى هذه المنصَّةِ محَلَّ أولادي الأعزَّاءِ، مبيلي بايغا وأخاهُ جيمي وممتازَ عليٍّ وأفرادَ أُسْرتيْهِما.»

وفوجِئَ الثلاثةُ بنداءِ الرئيسِ. وجاء من رجالِ الأمنِ الجُدُدِ من شقَّ أمامَهُم الطريقَ إلى منصَّةِ الرئيسِ، وجيمايما تسيرُ بجانبِ مبيلي غيرَ عابئةٍ بالازدِحامِ. وصافَحَهُم الرئيسُ واحداً واحداً بابتسامتهِ الأبويةِ المشْرِقَةِ، ووضع يدَه على رأسِ جيمايما هيَ الأخرى، وعاد إلى مخاطبةِ الجماهير: «لابد أنكم جميعًا سمِعتُم بعمليةِ كلابِ الليلِ الجرئيةِ. هذان الولَدَان هُما صاحبَا المبادرةِ الذكيَّةِ. وقد ساعدَهُما جيمي بايغا أخ مبيلي على تنفيذ الخطة العبقرية...»

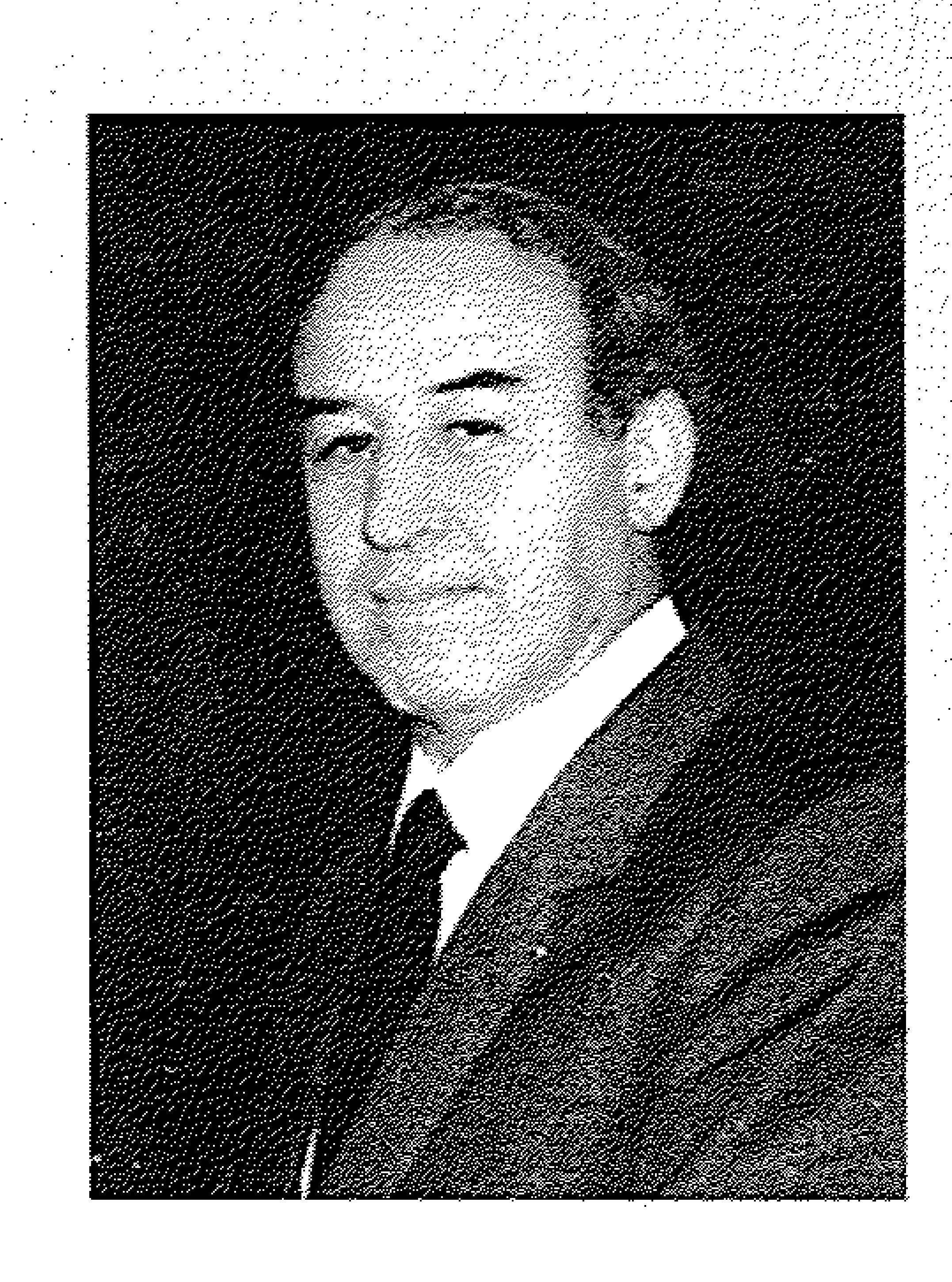
وضجت الساحةُ بالهُتافِ والتصفيقِ، فقال الرئيسُ: «بلغني خبرُها وأنا في السجْنِ، فأدخل على نفسي سُروراً عظيمًا. خصوصًا حين علِمْتُ أنهم تبرَّعوا بالكنز الكبير لتسليحِ المقاومةِ. وزاد سروري أنهم يمثِّلون العنصرينِ السلاليين اللذين يتكوَّنُ منهما شعْبنا، الإفريقي والآسيوي والمسيحي والمسلمُ.»

وعادَ التصفيقُ والهتافُ...

وبعد الخطابِ وشَّحَ الرئيسُ الثلاثةَ بأوسمةٍ ساميةٍ من التي يوشَّحُ بها كِبارُ المناضلين. وانحنىَ على جيمايما فطوَّقَ عُنُقَها بوسام الاستحْقَاق، ورفعها مِن قائمتيها الأماميتين ليراها الجمهورُ وهو يضحَكُ...

وكان يومًا مشهوداً بالنسبة للأسرتين والفتيين. فقد اجتمعت حولَهُما جموع الصحافيين المحلِّيين والدوليين يأخذون صُوَرَهم، ويسجِّلُون أقوالَهم. ولكنَّ جيمايما فازت بحصةِ الأسدِ منَ الاهتمامِ...

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي ، الحاصل على جائزة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » .

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس ، وخياله الخصب ، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى ، ومن عالم إلى آخر ، يقرب [illegible] الماضي البعيد ، ويلقي الأضواء على عوال [illegible] بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض [illegible] فالبقالي من أبرع كتا [illegible] الحديثة للشباب ف [illegible]

٩٩٦٠ - ٤٠ - ١٠ - ٧



07000405

